أبناء النار وأبناء الماء

ملاحظات حول قضية التواصل الثقافي بين العرب والغرب

احمد ابراهيم الخضيف

تشير ورقة العمل الفكرية التي أعدتها اللجنة التحضيرية لهذا المؤتمر الى جوهر القضية التي نعالجها اليوم وهي أن « الأمة العربية في أمجد لحظات القوة الحضارية لم تتوقف قط عن التفاعل الخصب الخلّاق مع الحضارات والأفكار الأخرى » ، هذه حقيقة « ولكن التفاعل من موقف القوة » تضيف ورقة العمل مشيرة إلى واقع الحياة الثقافية اليوم « تختلف نتائجه جذرياً عن التفاعل من موقف الضعف ، حيث لا يكون هناك تفاعل حقيقي بل نصبح في حالة استقبال سلبي ومجرد صدى بلا صوت أصيل يتبادل الأخذ والرد »[1] ، هذه هي القضيّة المطروحة أمامنا اليوم ، والسؤال الآن هو : إلى أي مدى نحن قادرون على خلق مناخ يسمح باعادة هذا التفاعل الحقيقي بيننا وبين ثقافات الأمم الأخرى ، وبالذات مع الثقافة التي أنتجتها حضارة الغرب والتي أعطت هذا العصر طابعه والتي سوف نعتني بتناولها في هذه الملاحظات ؟ ثم هل في ظروفنا (وبالذات واقع التجزئة الذي تعيشه أمتنا) ما يسمح بأن نمدّ الجسور ونبني علاقة جديدة قوامها الاحترام المتبادل والمنفعة المتبادلة ومن موقع الفاعلين أخذاً وعطاءلا المستقبلين سلباً واستلاباً ؟

ثم ما هي الخصائص ـ ونحن نسعى لتقديم وجهنا الفكري والثقافي والحضاري الى الشعوب الأخرى ـ ما هي الخصائص في ثقافتنا المعاصرة التي يمكن أن تكون اضافة للفكر الانساني في عالم اليوم يجد فيها أبناء الشعوب الأخرى شيئاً يرضي حاجتهم ويكمل شيئاً ينقصهم ويثري مسيرة الفكر والثقافة لديهم ، ليتحقق بذلك شرط التكافؤ والمنفعة المتبادلة بين ثقافتنا وثقافة الآخرين ؟

واذا كان بالامكان خلق ذلك المناخ الصحي للتفاعل الثقافي ، واذا كان بالامكان أيضاً وبرغم واقع التجزئة السياسي ، أن نقف **كثقافة عربيّة** ذلك الموقف ، واذا اهتدينا الى العناصر المجيدة في ثقافتنا التي يمكن أن تكون اسهاماً واثراءً لحضارة اليوم ، واهتدينا أيضاً الى العناصر التي لا نتناقض معها في ثقافة الغرب التي يمكن أن ننشىء معها حواراً ونبني معها علاقة تواصل وتعاون ، فكيف السبيل بعد ذلك إلى خلق الوسائل والأدوات التي تصل بنا إلى تحقيق هذه النتيجة وتوصيل هذه الرسالة وخلق هذه العلاقة الجديدة الكريمة التي تقوم على انقاض علاقة قديمة ظالمة ؟

ولنبدأ القول بأن ضرورة انشاء هذه العلاقة وبناء جسور هذا الحوار تأتي من أنه ضرورة لحياة أية أمة ووجودها ، فلا حياة لأمة تعزل نفسها وتبني أسواراً حولها ، لأن معنى ذلك انسحابها من العصر بدلاً من تأكيد انتمائها اليه . ان هذا الحوار الذي يقوم بين الثقافات هو الذي يعمل على تعزيز التفاهم بين الشعوب وارساء روح الإخاء والصداقة بينها وتأكيد فرص السلام وابعاد كوارث الحرب والغاء أسباب العداء التي غالباً ما تخلقها روح الجفاء والعزلة والانكفاء على الذات والانانية والتظاهر بالاستغناء عن الآخرين . وتأتي ضرورة هذا الحوار أيضاً من كونه قيمة من القيم الاساسية التي نشأت عليها ثقافتنا ﴿ وخلقناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾ الآية . وتأتي ضرورته مرة أخرى من كونه أحد الجوانب الأساسية لاثراء ثقافتنا ذاتها واغنائها ، فهو عامل مهم من العوامل التي نحتاجها لتحقيق النهضة التي ننشدها لأمتنا ، بل ان الحضارة الانسانية ذاتها ما كان لها أن تتواصل وان تنمو وان تصل إلى ما حققته من انجازات لولا هذا التفاعل الحضاري وهذا الحوار المتواصل بين الثقافات وهذا التبادل النافع لثمرات العقل الانساني بين شعوب الأرض الذي يحقق لعملية التدرج الحضاري ما تحتاجه من تمازج وتزاوج وتلاقح واخصاب ،

فالحضارة بحسب ما يقول ارنولد توينبي « انما هي حركة وليست حالة ، انها رحلة بحرية وليست ميناء »[٢] . إننا بهذا الحوار وحده يمكن أن نتعلم جميعاً كأعضاء في الاسرة الانسانية وكرفاق في رحلة واحدة ما يسميه برتراند رسل « الشعور بالمصلحة العامة للجنس البشري »[٣] .

ثم لنبادر بالقول ان هذا التواصل هو أصلاً موجود ، وهو شئنا أم أبينا سيظل موجوداً ، لأنه لا يمكن لشعب من الشعوب أو وطن من الأوطان أن يستغني عن حاجته لبقية زملائه في الاسرة الدولية ، فنحن لا نطالب باستحداث شيء هو أصلاً موجود وقائم ومتمثل في مختلف مظاهر الحياة من حولنا ، ان ما نريده اليوم هو وضع قاعدة لهذا الحوار بحيث نجعله قائماً على مبدأ التكافؤ ، على مبدأ الانداد ، وليس علاقة الأقوى بالاضعف كما أشرنا سابقاً ، ومن اجل تحقيق هذه الغاية فانه لا بد من البحث بجد ومثابرة عن كل عناصر القوة في ثقافتنا العربية القادرة على تحقيق هذا التوازن في حوارنا مع الثقافات الأخرى ، لكي نأتي إلى هذا التواصل ونحن مسلّحون بأمجد ما في تراثنا الحضاري من قيم ، ان في الثقافة كما في الحياة عناصر تبقى وتنمو وعناصر تذوي وتموت ، ونحن لا بد أن نكون مسلحين بهذه العناصر المجيدة الباقية لتأكيد هويتنا الحضارية من جهة ومن جهة أخرى لكي لا يبقى دور هذه الثقافة معطلاً كما ارادت له قوى الغزو الامبريالي والصهيوني أن يكون . اننا على ثقة من أن شيئاً من هذه الثقافة ما زال مشعّاً ومتوهّجاً وقادراً على أن ينير دروباً جديدة أمام انسان هذا العصر ويشارك في انقاذه من المأزق الحضاري الذي أسهمت جوانب سلبية من الثقافة الغربية (سنأتي على ذكرها فيما بعد) في أن تسوقه اليه .

إن شيئاً من ثقافات الشعوب الأخرى التي تشاركنا الحياة فوق هذا الكوكب له حضوره في ثقافتنا ، فبرغم أن لكل أمة خصائصها الثقافية التي صنعتها عوامل تاريخية وبيئية واقتصادية واجتماعية وجيوبوليتيكية فانها أيضاً جزء من هذا الهضم والتمثل لعناصر جاءتها من ثقافات أخرى ، وان شيئاً من ثقافتنا ، باعتبارنا أمة لها اسهامها في الحضارة الانسانية ، له وجوده المستمر في ثقافات تلك الشعوب . ان نظرة سريعة إلى تاريخ هذا التفاعل الثقافي بيننا وبين الأمم الأخرى تجعلنا ندرك الى أي مدى كان هذا التلقيح الثقافي صاحب الفضل الأول في التمهيد لحضارة العصر الحديث . فمن واقع القوة ذهبت الحضارة العربية لاستقطاب واستيعاب عصارة الحضارة اليونانية السابقة لها ، وباشر العرب فور تأسيس دولتهم الى ترجمة الكتب الفكرية والفلسفية التي ألّفها افلاطون وارسطو وكتب الطب وفروعه لأبوقـراط وجالينوس وكتب الرياضيات والفلك والعلوم الأخرى لاقليدس وارخميدس وابولونيوس وبطليموس وغيرهم من علماء ومفكرين وفلاسفة وموسيقيين ، وبلغت حركة النقل والترجمة أوجها عندما تأسس في بغداد وتحت اشراف الخليفة المأمون بيت الحكمة (عام ٢١٧ هـ ٨٣٠ م) وتم اختيار العلماء والباحثين ممن لهم خبرة بالترجمة عن تلك اللغات وتم جلب الكتب من مختلف اركان الأرض « وكان من آثار هذه الترجمة أن بدا الفكر العربي الاسلامي يطرق موضوعات جديدة ويجوب ميادين لم يطفها من قبل »[٤] . ولم يقتصر النقل على التراث اليوناني (وان كانت اليونانية هي أهم اللغات التي تم عن طريقها النقل) وانما نقل العرب جوانب من تراث الهند عن طريق اللغة السنسكريتية وترجمت كتب في الطب والفلك والرياضيات والتاريخ والأدب كما انهم لهم الفضل في نقل تراث من لغات اندثرت مثل اللغة النبطية التي تذكر المراجع أن أكثر من ١٥ كتاباً قد ترجمت عنها[٥] ، وكان لحضارة الفرس وآدابها ممثلوها في الحضارة العربية الذين نقلوا كتباً لاثراء الثقافة العربية وقد قام عبد الله بن المقفع بالدور الريادي في ترجمة أشهر ما في التراث الفارسي من أعمال مثل « كليلة ودمنة » وكتاب « الأدب الكبير » وكتاب « الأدب الصغير » وكتب أخرى عن تاريخ الفرس[٦] ، وقد تم في مرحلة متأخرة عن تلك الفترة ترجمة كتاب الشهنامه التي نظمها الفردوسي[٧] على نسق الياذة هوميروس وتذكر المراجع استفادة العرب من النصوص العبرانية واللاتينية والقبطية . وهكذا فقد نقل العرب إلى لسانهم « معظم ما كان معروفاً من العلم والفلسفة والطب والنجوم والرياضيات والأدبيات عند سائر الأمم المتمدنة في ذلك العهد ولم يغادروا لساناً من ألسن الأمم المعروفة اذ ذاك لم ينقلوا عنه شيئاً »[٨] فكأنهم على رأي مؤلف « التمدن الاسلامي » : « ورثوا أهم علوم الأشوريين والبابليين والمصريين والفرس والهنود واليونان وقد مزجوا هذا كله وعجنوه واستخرجوا منه علوم التمدن الاسلامي »[٩] . أضف إلى النقل والترجمة اختلاط العرب في حياتهم اليومية بهذا الخليط من الأمم والاجناس بمختلف عاداتهم وتقاليدهم وتنوع أساليب معيشتهم وانماط سلوكهم . وكان طبيعياً أن تنصهر كل تلك العناصر في بوتقة الحضارة الجديدة وان تصبح اللغة العربية هي لغة العلم والثقافة والمعرفة وبدأت عملية التمثّل والهضم والاستيعاب لكل تلك الموروثات الحضارية تأتي بنتائجها وظهرت فلسفة عربية اسلامية لها خصوصيتها وتفردها واضافتها الخاصة للتراث الفلسفي الانساني وصار للعرب مدارسهم الفكرية الخاصة بهم وعرفت الدنيا نتاجات الفارابي والغزالي

وابن رشد وابن طفيل والكندي وابن مسكويه وابن باجه وابن حزم وغيرهم من أساطين الفكر والفلسفة ، وفي مجال الطب بدأت تظهر للعالم اضافاتهم بعد أن طوروا ما درسوه ونقلوه من الثقافات الأخرى وظهرت هذه الرموز الخالدة في تاريخ البشرية أمثال الرّازي وابن سينا وابن النفيس وغيرهم وانشغلوا بالقضايا العلمية مثل الرياضيات والفلك وعرف تاريخ الحضارة الانسانية ابن الهيثم وجابر بن حيّان والخوارزمي والبيروني والبتاني والطوسي وغيرهم ولقد كان تفاعلاً مع الثقافات الأخرى من موقع القوة ولذلك فقد سرى تأثيرها كالنسغ في أغصان الشجرة التي كانت ثمارها للانسانية احدى أنبل وأرقى الحضارات التي أسدت أياديها البيضاء لكل شعوب الأرض . وعندما كان ظلام العصور الوسطى يغمر بلدان الشمال كانت مشاعل الحضارة العربية هي وحدها التي ترسل نورها واشعاعها الى الحد الذي يجعل كاتباً فرنسياً كبيراً ينتمي إلى الحضارة الغربية الحديثة هو أناتول فرانس يقول « ان أشأم يوم في تاريخ الانسانية هو اليوم الذي صدّ فيه شارل مارتل الفتح العربي عن فرنسا » وكان لا بد أن تمر سنوات طويلة حتى يأتي كاتب اسباني آخر مثل بلاسكوا ابانيز لكي يصف الفتح العربي لاسبانيا بأنه « لم يكن في الواقع فتحاً فرض على الناس برهبة السلاح بل حضارة جديدة بسطت شعابها على جميع مرافق الحياة ولم يتخل أبناء تلك الحضارة زمناً عن فضيلة حرية الضمير »[١٠] . ويقول « ونمت على هذا ، ما بين القرن الثامن والقرن الخامس عشر اجمل الحضارات وأغناها في القرون الوسطى ، وفي الزمن الذي كانت فيه أمم الشمال فريسة للفتنة الدينية والمعارك الهمجية يعيشون عيشة القبائل المتوحشة في بلادهم المتخلفة كان عدد سكان اسبانيا يزداد فيزدادون على ثلاثين مليوناً تنسجم بينهم جميع عناصر البشرية والعقائد الدينية وخفق قلب الحياة الاجتماعية بأقوى نبضاته التي عرفها تاريخ الجماعات البشرية »[١١] .

وبدأت دورة جديدة عندما انتبهت شعوب الغرب الأوروبي الى عناصر القوة في هذه الحضارة التي أسست احدى أكبر الممالك في التاريخ ، وجاء ملوكهم يستجدون المعرفة « وارسل الملك فيليب البافاري إلى الخليفة هشام الأول يسأله السماح له بايفاد هيئة تشرف على أحوال الاندلس ودراسة نظمها وثقافتها حتى يتمكنوا من اقتباس ما يفيد بلادهم»[١٢]، وحذا حذوه ملك انجلترا جورج الثاني ثم تلت هذه البعثات وفود أخرى «قدمت من فرنسا وايطاليا والبلاد المنخفضة ملأت معاهد غرناطة واشبيلية واقتبست من الحضارة الاندلسية كثيراً من العلوم والآداب والفنون ، ولم تكتف أوروبا بارسال مثل هذه البعثات العلمية بل قامت بعض الدول الأوروبية في أواسط القرن التاسع الميلادي وما يليه تستأجر الاساتذة والخبراء العرب لتأسيس المدارس والمعامل واحياء الصناعات العديدة ونشر لواء العمران والتنظيم في بلدانها »[١٣] .

ويعتبر فريدريك الثاني (١١٩٤ - ١٢٥٠) الذي نصب امبراطوراً عام ١٢١٢ وأعاد تنظيم مملكة صقلية أول من مهد لعصر النهضة في أوروبا وكان شديد الاعجاب بالفلاسفة العرب وكان يجيد القراءة باللغة العربية وقام في عام ١٢٢٤ بتأسيس جامعة نابل التي جعل منها«اكاديمية لادخال العلوم العربية إلى العالم الغربي »[١٤] .

وقد كان لأفكار ابن رشد أكبر تأثير على هذا القيصر الذي ساعد على نقلها وانتشارها كما تذكر مصادر غربية وان مدارس في باريس عرفت تعاليم ابن رشد « وتأثرت بالفلسفة العربية وطريقة البحث العلمي ومهدت بذلك لازدهار الثقافة الغربية »[١٥] .

وتذكر المصادر التي تهتم ببداية حركة الترجمة ان اهتمام الأوروبيين بالمؤلفات العربية يعود إلى القرن العاشر الميلادي ، فجمعوا ما ألّفه العرب في الطب والفلسفة والرياضيات والطبيعيات والكيمياء والأدب واللغة وغيرها وازداد اهتمامهم بالمؤلفات العربية اثر احتكاكهم بالمسلمين أثناء الحروب الصليبية (١٠٩٦ - ١٢١٩) فاقتنوا الكثير منها ونقلوها الى بلادهم[١٦] .

وبرغم روح العداء التي يحملونها للعرب خاصة في تلك الفترة المتوترة من تاريخ العلاقات بين العرب والغرب فان ذلك كله لم يمنعهم من نقل المعرفة من اعدائهم لأنهم أدركوا « ان مستوى التمدن لدى المسلمين كان أعلى بكثير من المستوى الموجود عندهم آنذاك ولم يترددوا في الاعتراف بتفوق الحضارة الاسلامية عليهم وأخذوا يقتبسون منهم معالم الحضارة والمدنية »[١٧] .

وقد تأسست في طليطلة في تلك الفترة كلية لترجمة الكتب العربية الى اللاتينية وكان لهذه المدرسة ولحركة النقل النشطة هذه نفوذها على عقول وافكار جيل من المفكرين لعل أهمهم جميعاً هو روجر بيكون الذي يعتبر مؤسس المنهج العلمي الحديث في أوروبا ، ويتحدث عن كتاب « بناء الانسانية » لبيريفولت قائلاً « ليس لروجر بيكون ، ولا لسميه الذي جاء من بعده الحق في أن ينسب اليهما الفضل في ابتكار المنهج التجريبي فهو لم يكن الا رسولاً من رسل العلم والمنهج الاسلامي في أوروبا المسيحية وهو لم يمل قط من التصريح بأن

تعلم معاصريه للغة العربية وعلوم العرب هو الطريق الوحيدة للمعرفة الحق» . ويقول روجر بيكون عن نفسه « ان وجود الفكر الأوروبي والعلم الأوروبي كان مستحيلاً لولا وجود المعرفة العربية ، لقد دعيت أوروبا فجأة الى الحياة بعد أن ظلت غارقة في ظلمات الجهل طوال خمسة قرون ، وهي مدينة بكل مقوماتها الى العالم الاسلامي »[١٨] .

ولم يكن الكتاب وحده الذي تولى نقل الثقافة العربية إلى الغرب فقد كانت أوروبا وكما يذكر العقاد في كتابه أثر العرب في الحضارة الأوروبية « تتلقى آثار الثقافة العربية من ثلاث جهات متلاحقة في القرون الوسطى ، أولها جهة القوافل التجارية التي كانت تغدو وتروح بين آسيا وأوروبا الشرقية والشمالية عن طريق بحر الخزر وطريق القسطنطينية،وربما كانت هذه هي الطريق التي وصلت فيها أطراف الأخبار الاسلامية إلى بلاد اسكندناف ، والجهة الثانية هي جهة المواطن التي احتلها الصليبيون وعاشوا فيها زمناً طويلاً بين سورية ومصر وسائر الأقطار الاسلامية . والجهة الثالثة هي جهة الاندلس وصقلية وغيرها من البلاد التي قامت فيها دول المسلمين وانتشر فيها المتكلمون بالعربية »[١٩] .

حتى بعد أن جاءت عصور الهزيمة والانكسار ظل ذلك الميراث الثقافي العربي يمارس نفوذه وتأثيره على الفكر والأدب والفن لدى تلك الشعوب ، لنذكر مثلاً تأثير «ألف ليلةوليلة» التي لم تتم ترجمتها الكاملة إلا عام ١٧٠٤ حيث ترجمها الى الفرنسية الكاتب الفرنسي كالاند وترجمت عن الفرنسية إلى الانجليزية في ذات الوقت . ان هذا العمل الابداعي الخلّاق الذي هو نتاج العبقرية العربية في القص والخيال كان له تأثيره في الأدب القصصي الأوروبي الذي لا يوازيه كتاب قصص آخر ، بل ان تأثيره ليمتد حتى أيامنا الحاضرة كما هو واضح في أشرطة السينما ومسلسلات الرسوم الساخرة وقصص ومجلات الأطفال وصارت شخصيات ألف ليلة مثل السندباد وعلاء الدين وحكايات علي بابا وحلاق بغداد جزءاً من مكونات الوجدان لانسان تلك البلدان ، أما تأثيرها في الأدباء منذ شوسر صاحب « حكايات كانتربري » حسبما لاحظ ذلك الاستاذ هملتون جب (أي قبل ترجمتها بوقت طويل) الى الكتاب مثل تشارلس ديكنز في قصته ديفيد كوبر فيلد وفولتير في رواية كانديد وان كتاباً كباراً آخرون مثل « هملتون ولسينغ وديدرو وبومارشيه وبيرلويس »[٢٠] استفادوا جميعاً كما يقول احد الدارسين لهذا الأثر الأدبي من ألف ليلة وليلة وان بعضهم « بنى على أساس الليالي أعماله واستمد منها الطبيعة والروح وتعلّم الكثير من الأداء والتكنيك »[٢١] .

وللشاعر تينيسون قصيدةبعنوان ذكريات ألف ليلة وليلة ويرى العقاد ان بوكاشيو في حكايات الديكامرون التي تعتبر تأسيساً للقصة الأوروبية ما هي إلا أثر من آثار ألف ليلة وليلة .

وكانت « حي بن يقظان » لابن طفيل تأسيساً للرواية الفلسفية والنفسيّة في مراحلها الأولى وقد أرسلت هي أيضاً موجة من أدب الجزيرة التي لا شك أن « روبنسون كروزو » انما هي احدى ثماره .

إن شيلي في قصيدة « عنترة » أو جوته في ديوانه الشرقي أو لوركا الذي يستعمل كلمة قصيدة العربية لاشعاره أو شعراء التروبادرو الذين، عرفتهم اسبانيا ناقلين للتراث الشعري والغنائي الاندلسي ، ما هذه جميعاً إلا شواهد حية على مدى هذا التأثير بل ان الدراسات الحديثة ما زالت كل يوم تهتدي إلى جوانب جديدة لهذا التأثير في الأدب مثل الدراسة التي نشرها مؤخراً الدكتور عبد الله الطيب[٢٢] والذي اكتشف أن ما بعثه توماس اليوت من تجديد في حركة الشعر الانجليزي انما اعتمد فيه على اقتباسات من شعر المعلقات . ان هذا مجرد مثل لمدى تغلغل التأثير العربي في الآداب الأوروبية ناهيك بالمعارف والعلوم الأخرى فالرموز الهندية التي جعل منها العرب أرقاماً هي ذاتها الأرقام التي يستعملها الغرب اليوم ، وعلوم الجبر نقلت باسمها باعتبارها علماً عربياً والفلك علماً أرسله اليهم العرب والخوارزمي في الرياضيات والرازي وابن سينا وابن النفيس في الطب مؤسسين للنظرية الطبية الجديدة وابن خلدون مؤسس لعلم الاجتماع وتفسير التاريخ كما كان ابن رشد والفارابي من قبله مؤسسين للفكر الفلسفي[٢٣] ، والمعري في رسالة غفرانه سبق دانتي في كوميديته الإلهية وابن حزم في طوق الحمامة سبق الحركة الرومانتيكية التي اهتمت بالوجدان ، والاكتشافات الجغرافية الكبرى مثل اكتشاف فاسكو دي غاما لطريق الهند البحري لم يتم الا بالاستعانة بالخبرة العربية في الملاحة ، وما أضاف الفارابي وزرياب لآلات الموسيقى ما زال جزءاً من الأوركسترا الحديثة والاربسك أو فن الزخرفة العربية ما زال مدرسة فنية لا تفقد مع الأيام تجددها وأصالتها ، وفكر الصوفيين العرب أمثال محيي الدين بن عربي والمقري وغيرهما ما زال غذاء روحياً تقام من أجله في أوروبا المعاهد أمس واليوم وغداً[٢٤] ، وهكذا فان الوقت ينتهي ولكن الشواهد التي يمكن أن نسوقها على مدى تأثير الثقافة العربية في ثقافة الغرب تتواصل وتستمر ، وعندما نورد هذه الشواهد والأمثلة في مثل هذا المقام فانما نوردها لمجرد

التذكير بان ما أخذته أوروبا التي تبسط اليوم سلطان ثقافتها وأسلوب معيشتها على أقطار كثيرة من العالم من الثقافة العربية كان يشكل القاعدة الأساسية لانطلاقها وتفوقها ، وكما يقول مالك بن نبي فان احدث اختراعات هذه الحضارة « من القمر الصناعي إلى الصاروخ الموجه قائم على تطور علمي لا يمكن أن نتصوره لولا علم الجبر أو علم المثلثات أو الحساب العشري الذي يقوم على استخدام الصفر كرقم أساسي ، فلولا هذه المقدمات العلمية التي هيأتها الحضارة الاسلامية للحضارة المسيحية لما استطاعت هذه أن تغزو الفضاء اليوم »[٢٥] .

ونتساءل هنا لماذا لم يكن ما أخذته عنا أوروبا استلاباً ثقافياً ؟ لقد نهلت من ينابيع الثقافة العربية فكراً وفناً وعلوم تطبيقية وأروت ظمأ امتد عدداً من القرون للمعرفة التي كانت في حوزة العرب دون أن يكون ذلك من موقع القوة الذي كان للعرب عندما اقتبسوا حضارات الآخرين فلماذا إذاً لم يكن موقف أوروبا تبعية ثقافية ؟ الدارسون لتلك الحقبة يوردون أمثلة كثيرة لأصوات كانت ترتفع تبدي احتجاجها الشديد من هذا الاقتباس وتنذر بالخطر الذي يتهدد الحياة الثقافية لديهم ، مثل آراء الفارو الاسباني الذي أبدى تأسفه لما رآه من ولوع بالأدب العربي قائلاً : « ان أرباب الفطنة والتذوق سحرهم رنين الأدب العربي فاحتقروا اللاتينية وجعلوا يكتبون لغة قاهريهم دون غيرها »[٢٦] ، ومعاصر آخر لنفس الكاتب يقول « وا أسفاه ، ان الجيل الناشيء من المسيحيين الأذكياء لا يحسنون أدباً ولغة غير الأدب العربي واللغة العربية انهم ليلتهمون كتب العرب ويجمعون منها المكتبات الكبيرة بأغلى الاثمان ويترنمون في كل مكان بالثناء على الذخائر العربية في حين يسمعون بالكتب المسيحية فيأنفون من الاصغاء اليها محتجين بأنها شيءلا يستحق منهم مؤونة الالتفات »[٢٧] .

ولعل هذه الأصوات المنذرة والمحذرة من خطر الثقافة العربية لو وجدت في ذلك الوقت اذاناً صاغية لضاعت على الغرب فرصتهم التاريخية في تحقيق عصر النهضة . ان اقتباسهم من العرب لم يكن تبعية ثقافية لأنهم لم يكتفوا بالنقل ، وانما اجتهدوا في تطوير ما نقلوه « انهم » على رأي احد الباحثين الأجانب « لم يقنعوا بعد مرحلة التعرف ، بادراك العلوم المنقولة في الكتب ، بل أقدموا على انتقادها وتنقيحها وتوسيعها والزيادة عليها وبذلك بدأ تطور العلوم في الغرب »[٢٨] ، لقد أثمر هذا الاتصال الغربي ، بالحضارة العربية نتائجه سريعاً ، وتحقق للغربيين الهدف من هذا التلقيح الذي أرادوه لثقافتهم ، ومن بعد بدأ الغرب يوقد مصابيحه ويخرج من كهوف القرون الوسطى التي كانت عهد ظلام بالنسبة اليهم ، بدأت مشاعل العرب تنطفيء واحداً وراء الآخر وبدلاً من أن يحقق العرب اضافة الى انجازاتهم العلمية والفكرية بدأوا يفقدون سيطرتهم وبدأت مرحلة الانحسار الحضاري وبدأ الركود الثقافي يعم الوطن العربي وبدلاً من الانشغال بتطوير الفنون والعلوم انشغل الناس برد أفواج الغزاة والمعتدين ومع سقوط الخلافة في بغداد والتمزق الذي بدأ يطرأ على الحكم العربي في الاندلس ومجيء الغزوات التتارية والغزوات الصليبية منذ ١٠٩٦ الى ١٢٩١ بدأت تدريجياً موجة التقهقر الحضاري ، وبرغم العلامات التي كانت تضيء أثناء ذلك أو بعد ذلك مثل الانتصارات التي حققتها جيوش صلاح الدين الأيوبي ، أو خروج عالم قادر على كشف اسباب انهيار الأمم وسقوطها مثل ابن خلدون ١٣٣٢ - ١٤٠٩ برغم ذلك فقد أخذ التاريخ مساراً مختلفاً بالنسبة للعرب لم يكن في صالح حضارتهم ووجودهم كأمة واحدة ، ومع نهاية الحكم العربي في اسبانيا ١٤٩٢ وبسط الهيمنة العثمانية على سوريا ومصر ١٥١٧ انتهت الدولة التي أقامها العرب ، فقد أعلن السلطان سليم نفسه خليفة على المسلمين وقام العرب بتسليمه مفاتيح الكعبة .

وكانت مرحلة خيم فيها الجمود على العالم الاسلامي كله بما فيه الوطن العربي حيث تسلط على مقدرات شعوب المنطقة ولاة جهلة وحكام مستبدون واختفى الاجتهاد وطمست حرية الفكر والتعبير وانطفأت قوى الخلق والابداع ، وافرخت تلك المرحلة فكراً ضائعاً ذليلاً لا شك أن آثاره ما زالت تعيش معنا حتى اليوم ، وكانت المؤشر الوحيد لذلك العهد أن الأمة العربية احتفظت بأهم مقومات قوميتها ودينها ولغتها .

ومن جديد بدأت حركة الاتصال المباشر بالفكر الأوروبي والغرب الأوروبي عندما أراد محمد علي بناء دولة عصرية في مصر ، وكان ضمن البعثات التي أرسلها لتلقي العلوم من الغرب الشيخ رفاعة الطهطاوي (١٨٠١ - ١٨٧٣) الذي سافر الى باريس عام ١٨٣٦ ليلتقي بالفكر الذي أسهم في الثورة الفرنسية مثل العقد الاجتماعي لجان جاك روسو وقرأ مؤلفات فولتير وراسين وترجم لأدباء فرنسيين وتعرف الى نظريات التربية والعلوم هناك وعاد عام ١٨٣١ لتكون دعوته الرائدة الى التعليم والحاحه على الزاميته في المرحلة الابتدائية برغم ما في نظريته من تأثر سلبي ببعض جوانب المجتمع البرجوازي الفرنسي مثل اقتصار التعليم في رأيه على أصحاب الثروة واليسار . وكان تقدمياً في أفكاره حول المرأة التي طالب بضرورة تعليمها ، وكلفه محمد علي بتأسيس دار الالسن التي تحولت الى

معهد لتعليم اللغات ، جاء الطهطاوي وكان العصر الجديد قد دخل إلى المنطقة العربية بتحولاته الصناعية التي كانت المطبعة احدى أخطر وأهم انجازاتها ، فكان كتابه تخليص الابريز في تلخيص باريز الذي صدر عام ١٨٣٤ علامةعلى طريق هذا الاتصال الجديد بين الثقافتين .

وكانت قولته المعروفة « ليكن الوطن مكان سعادتنا أجمعين نبنيه بالحرية والفكر المصنع » تحمل تأثير شعارات الثورة الفرنسية في الحرية والعدالة والاخاء وكان رفاعة الطهطاوي ومن قبله استاذه حسن العطار ومعاصريه مثل تلميذه محمد عثمان جلال الـذي ترجم موليير ومحمود الفلكي وعبد الله فكري وأقطاب المدرسة السورية من أمثال بطرس البستاني منشىء أول معجم عربي عصري ومخرج أول موسوعة عربية وفق الاساليب المتبعة في الغرب ومؤسس مجلة نفير سوريا وسليم البستاني مترجم الياذة هوميروس شعـراً ثم ناصيف وابنـه ابراهيم اليازجي كمشتغلين بالتأليف والاقتباس والترجمة ثم فارس الشدياق صاحب التآليف المعروفة ، كانوا جميعاً جيل الريادة في هذا اللقاء مع الغرب ابان نهضته وقبيل واثناء ثورته الصناعية ثم صارت بعد ذلك الهجرة اللبنانيـة الى الأمريكيتين حيث صدرت في نيويورك جريدة كوكب الشرق عام ١٨٨٨ ونشأت الرابطة التعليمية ، كان أدب المهجر صورة واضحة لامتزاج الفكر العربي بالمدارس الأدبية الغربية فقد استعار ذلك الأدب التقنية الغربية وبساطة الأسلوب في تقديم مفاهيم انسانية مفعمة بعبير الشرق وصوفيته وتصويره للرابطة الانسانية بين البشر وكانت الصحافة كوسيلة اتصال بين الناس مما نقله الشرق العربي عن الغرب فأثرت في آدابه تأثيراً كبيراً وكما يقول العقاد : « فقد ساعدته على سهولة الكتابة وشيوع الكلمات الفصيحة وتعدد أغراض القول وكانت العلوم الحديثة والكتب المترجمة من الموارد الفكريـة التي وسعت مسارح التـأليف والتصنيف »[٢٩] .

وكان محمد علي قد أصدر في مصر الوقائع المصرية عام ١٨٢٨ وبعد ذلك صدرت في سوريا حديقة الاخبار وفي تونس الرائد وفي لبنان جريدة لبنان وفي ليبيا طرابلس الغرب وفي الجزائر المبشر وكلهاصحـف يملكها الحاكم أو السلطة ولكنه صدرت بعد ذلك أو أثناء ذلك بعض الصحف التي جاءت تحمل صوت المناضلين وتنقل الدعوات الاصلاحية والمطالبة بالحرية مثل تلك الدعوات التي طرحها جمال الدين الافغاني ومن بعده جيل من المفكرين والمناضلين السياسيين .

وكان خير الدين التونسي قد جاءت لينشر دعوة مشابهة لدعوة رفاعة الطهطاوي في الجناح الغربي من الوطن العربي ويعرض فلسفته في الاقتباس من الحضارة الجديدة وألف في ذلك كتابه « أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك » الذي صدر عام ١٨٦٧ وقد « نعى على المسلمين كراهية الأخذ بأساليب المدنية الحديثة في الاصلاح والاعتقاد بأن كل ما يصدر عن أوروبا حرام ، أو مخالف للشريعة الاسلامية ، وقال إن التمسك بالدين لا يمنع من النظر فيما عند الأمم الأخرى والأخذ بأحسنه فيما يتعلق بالمصالح الدنيوية »[٣٠] .

وكان الأعلام العرب الذين دعوا إلى تحرير المرأة من بين أولئك الذين قاموا بمسؤولية اللقاء الثقافي بين الغرب والشرق العربي أمثال بطرس البستاني ورفاعة الطهطاوي والذين نادوا بضرورة تعليمها ليكون ذلك تمهيداً لدعوة قاسم أمين في نهاية القرن الماضي بالسفور والغاء الحجاب والطلاق عن طريق المحاكم ومنع تعدد الزوجات . لقد كانوا يواجهون الغرب باتزان وثبات ، يقابلون بين الثقافتين دون اهتزاز أو احساس بالنقص أو الخوف ، وكانوا يدركون ما في تراثهم الثقافي من أوجه العزة والكرامة ولكنهم يدركون أيضاً حاجة مجتمعاتهم ـ التي انقطعت لفترة طويلة عن عهود ازدهارها الحضاري ـ الى المعارف والعلوم التي جاءت من الغرب وقد أنشأ بعضهم علاقات مع بعض المفكرين الغربيين المناصرين لقضاياهم وتعرفوا على تيارات انسانية في الثقافة الغربية ذاتها ، وفي حين كان روديارد كبلينج يمجد الحملات الفيكتورية على بلادنا كان الشاعر ويلفرد بلانت صاحب كتاب « التاريخ السري لمصر » يقف موقفاً مدافعاً عن الحرية في مصر ومؤيداً قوياً لثورة عرابي، وكانت لجمال الدين الافغاني صداقة قوية معه بمثل ما كانت له صداقات مع مفكرين آخرين مثل هربرت سبنسر في بريطانيا ورينان وتيوفيل غوتييه في فرنسا وعرفت تلك الفترة معارك فكرية بين ممثلي الثقافتين ، ولا شك أن المناظرة التي كانت بين الافغاني والفيلسوف الفرنسي ارناست رينان إثر محاضرة الثاني التي ألقاها في السربون في ٢٩ مارس ١٨٨٢ هي احدى حلقات ذلك الحوار الذي غالباً ما يبدأ فيه ممثل الفكر الغربي مهاجماً ثم يقوم ممثل الفكر العربي مدافعاً ، لقد ادعى رينان أن العقل العربي لا يصلح للدراسة والبحث لأنه عقلية مجدبة كالصحراء التي نبتت فيها ، انها عقلية لا تقوى على التحليل والفهم كما هو الحال بالنسبة للعقلية الآرية ، وان الاسلام دين يناهض العلم وانه عجز على التطور وعن قبول أي عنصر من عناصر المدنية[٣١] .

وقد رد جمال الدين الافغاني مفنداً هذه الادعاءات مثبتاً

بالحجة أن عقلية العرب التي استطاعت تحصيل ثقافة الفرس والروم بسرعة لا تعادلها سوى سرعة الفتوحات الاسلامية وارتقت بكل هذه العلوم وبلغت بها مرتبة الكمال لا يمكن أن تكون عقلية جامدة . لقد كان من السهل على الفرنسيين أو الانجليز أو الالمان الذين لا يبعدون عن روما وبيزنطة بعد العرب عنها ان يستغلوا كنوز علوم تلكما المدينتين ولكنهم لم يفعلوا حتى جاء اليوم الذي ظهر فيه منار المدنية العربية على قمم جبال البرانس يرسل ضوءه وبهاءه على الغرب .

أما عن اجحافه بحق الاسلام فان الافغاني يعزوه الى الصورة المشوهة التي نقلت عن الاسلام قائلاً : « ان مناهضة المسلمين للعلوم والفلسفة في بعض عصورهم المتأخرة لا ترجع إلى طبيعة دينهم بل أولى بنا أن ننسبها إلى سوء فهم بعض الشعوب التي اعتنقت الاسلام من غير العرب » .

وقد انتهى رينان من هذه المناقشة بأن أعلن أن رد الافغاني وقع منه موقعاً طيباً وانه سيعاود دراسة الموضوع مضيفاً بأن الاضطهاد بين المسيحيين لا يقل عما هو عليه بين المسلمين وجاليليو لم يلق من الكاثوليك خيراً مما لقي ابن رشد من المسلمين ، ولكن مثل هذه النظرة التي تؤمن بتفوق الجنس الآري هي التي تبنتها السياسات الرسمية لدول الغرب التي بدأت في تنفيذ مخطط الغزو وسلب حرية الشعوب ، وتحققت للمستعمر الغربي السيطرة على مناطق الوطن العربي فبعد أن وقع الاحتلال الفرنسي على الجزائر (١٨٣٠) والانجليزي على الطرف الآخر من خريطة الوطن على الجنوب العربي في ذات العام . بدأت رقعة الاحتلال تتسع اذ سرعان ما استولت فرنسا على تونس ١٨٨١ واستولى الانجليز على مصر عام ١٨٨٢ وتم تمزيق الوطن العربي واحتلاله وسيطرت فرنسا على لبنان وسوريا والمغرب بعد تونس والجزائر وسيطرت بريطانيا بعد مصر والجنوب العربي على العراق والأردن والسودان وفلسطين وسيطرت ايطاليا على ليبيا وارتريا ووقع الوطن العربي في قبضة الاستعمار الغربي المباشر الذي بدأ على الفور جهوده في محو كل المقومات الثقافية وأعلن حربه ضد اللغة العربية ولم تعد المسألة تفاعلاً ثقافياً أو حضارياً وانما هو هجمة ضارية شرسة استهدفت كل مقومات الامة العربية لكي تبقى ذليلة خانعة على مدى الدهر ، وهكذا رافق الغزوة العسكرية غزوة ثقافية للتمكين لذلك الاحتلال الفكري ومحو كل مقومات الحياة لدى شعوب المنطقة ديناً ولغة وتراثاً وكياناً بل ان بعض هذه الغزوات كان استعماراً استيطانياً استهدف اقتلاع شعب وابادته ووضع شعب آخر مكانه مثلما كان الأمر مع ليبيا على أيدي الطليان أو الجزائر على أيدي الفرنسيين أو ما حدث لفلسطين على أيدي قوى الصهيونية العالمية . وقد ركز الاستعمار في غزوته الثقافية على ضرب اللغة باعتبارها العصب الحي الذي يتم بضربه تقويض هذه الأمة ثم سعى هذا المستعمر جاهداً لتكريس مبدأ العزلة بين اجزاء الوطن العربي وتغذيه التيارات الإقليمية والبحث عن أي خصائص جبهوية مميزة لايهام كل قطر انه انما يشكل كياناً خاصاً ، تشكيكاً في عروبته وانتمائه القومي معتمداً على سياسة التجهيل والقمع ، وانتهت أبسط الشروط لاقامة حوار نافع بين الثقافتين ، حتى بواكير ذلك الحوار الثقافي الذي بدأ مع بداية القرن الماضي لم تلبث أن خمدت وانتهت بعد أن استتبت الأوضاع للهيمنة الاستعمارية . وحسب مقولة ابن خلدون الشهيرة « بان المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيّه ونحلته وسائر أحواله وعوائده » فقد ارتأى بعض المفكرين أنه لا خروج من الأزمة الا بالتشبه بهذا المستعمر واستعارة كل وسائله واساليبه لاسترداد المكانة الضائعة وزاد من ذلك الأمر حركة كمال أتاتورك في المنطقة عندما جعل تركيا تنسلخ عن تراثها الاسلامي وعن أساليب معيشتها ولباسها وتتخلى عن الحرف العربي وتقتدي بالغرب في كل شيء ، وخرجت أصوات مفكرين لهم مكانتهم الكبيرة في الفكر العربي مثل طه حسين ترى في أن الحل « هو ان نسير سير الأوروبيين ونسلك طريقهم لنكون لهم انداداً ولنكون لهم شركاء في الحضارة : خيرها وشرها ، حلوها ومرها [٣٢] ، ولنشعر كما يشعر الأوروبي ولنحكم كما يحكم الأوروبي ، ثم لنعمل كما يعمل الأوروبي ، ولنصرف الحياة كما يصرفها »[٣٣] .

كان موقف الانبهار الذي يمثله الدكتور طه حسين في تلك المرحلة من حياته الأدبية موقفاً له ما يقابله في تطرفه ، فثمة تيار آخر كان يرفض كل الوان الثقافة الأوروبية ويطالب بالتقوقع والانكفاء ويقوم على تقديس التراث ويزهو اتباعه بالماضي ويريدون نقله الى عصرنا الحاضر ، واذا كان الموقف الأول استلاباً وتبعية فان الموقف الآخر الذي تحركه عقدة الخوف برغم ما يبدو في ظاهرة من حرص على الانتماء للتراث الثقافي العربي الا انه ينطوي على استهانة بإمكانيات الثقافة العربية وما تحتويه من قوة قادرة على استيعاب العناصر الجديدة وتمثلها وهضمها دون أن تصاب بالاختناق .

ولكن كلا التيارين كان رد فعل طبيعي لظروف الهيمنة والاستلاب والعدوان ولم تكن الأمة في مناخ نفسي يسمح بأن تشارك تلك الطلائع المتعلمة آراءها وأفكارها فقد كانت جموع

الناس مشغولة بدفع الأذى عن نفسها وحمل السلاح لمقارعة هذا المعتدي ونتيجة لتصعيد معارك التحرير ضد قوى الاستعمار في الوطن العربي وما قدمته الشعوب من تضحيات بدأت موجة الاستعمار تنحسر تدريجياً وبدأ المستعمر يعلن تراجعه عن هذه الاقطار ويعترف بهزيمته وينسحب بشكله العسكري وان حاول ـ ونجح في حالات كثيرة ـ أن يبقى بنفوذه السياسي وهيمنته على مقدرات تلك البلاد الاقتصادية والثقافية ، وبرغم المحاولات المستمرة لعودته متنكراً وبأقنعة جديدة فان آفاقاً رحبة للمعركة الثقافية قد فتحت وفرصاً جديدة للحوار قد نشأت على أسس جديدة وبشروط جديدة نتيجة لهذا التبدل الذي طرأ على العلاقة بيننا وبين دول الاستعمار القديم .

ولا بد من الانتباه هنا إلى أن الثقافة العربية قد حققت لنفسها انتصاراً كبيراً ، وفي حين يقدم لنا التاريخ الكثير من الشواهد عن أمم خرجت من تحت كابوس الاستعمار بعد أن فقدت شخصيتها المتميزة ونسيت إلى الابد لغاتها فان اللغة العربية ظلت هي لسان أبناء الأمة العربية تحتفظ بثرائها وزخمها وقدرتها على الحركة والتجدد ومواكبة العصر وعندما تطرح قضية التواصل الثقافي اليوم فهي بلا شك تطرح في مناخ يختلف عن مناخ العشرينيات أو الثلاثينيات أو الاربعينيات من هذا القرن انها تطرح وحركة النضال العربي قد كسبت مواقع جديدة وحققت انتصارات كبيرة ؛ وطوق الجهالة الذي كان مضروباً على أبناء الأمة العربية قد تكسر بعد أن اتسعت فرص التعليم وارتفع المستوى المعيشي لانسان المنطقة ، ان الواقع العربي وبرغم سلبيات التمزق الاقليمي وتبعية بعض الاقطار العربية لقوى الهيمنة القديمة وبرغم أن الاستعمار لا يزال يحتفظ بقاعدته المتقدمة في قلب الوطن العربي « اسرائيل » ، فان هذا الواقع حقق تقدماً كبيراً في العقود الثلاثة الأخيرة مما نتج عنه خلق مناخ جديد لمسألة الاتصال الثقافي . وقبل أن نمضي مع مناقشة الاسس الجديدة لبناء جسور الاتصال الثقافي لا بدّ أن نكون على وعي ببعض العقد التي حكمت العلاقة بين الثقافتين ولعلّ أهمها ما أشار اليه الاستاذ الجامعي السويسري مارسيل بوازار مؤلف كتاب « انسانيّة الاسلام » الذي صدر في باريس عام ١٩٧٩ :

* ان الموقف الغربي الأوروبي من العالم الثالث (بما فيه الوطن العربي طبعاً) ما زال ينطوي على شعور لا واع بالخوف والازدراء في آن ازدراء ناتج عن « ذلّ صادر عن شموخ قومي متأصل مشبع بذكريات تاريخية واعتبارات موضوعية خاصة بالتنمية الاقتصادية للمجتمعات وربما أيضاً لتمييز عنصري خفي » وخوف « تزكيه القوة العدديّة لهذا الجزء من البشرية الذي يملك موارد اقتصادية ضخمة كما تذكيه مطالبه بحقوقه التي لم تفهم حقّ فهمها »[٣٤] .

* ثم يذكر المؤلف انه اذا لم يكن طمساً متعمداً فانه جهل واستعلاء سببه عقدة الاغريق بازاء برابرة الشرق وهو انكارهم في الغرب أن الحضارة العربية الاسلامية أسهمت اسهاماً ملموساً في صياغة النهج الذي يكفل احترام الشخصية البشرية ويحدد العلاقات بين الشعوب ، مصرّين على أن احترام الشخصية الانسانية هو نتاج الفكر الغربي ، ولذلك فان فضل حضارة العرب على الغرب ما زال مجهولاً لدى عامة الناس .

* ويمكن الاضافة إلى ما ساقه بوازار بانه حتى اذا كان ثمّة اعتراف بهذه الحضارة من قبل المهتمّين والدارسين المتخصصين فانه اعتراف بتلك الحضارة التي تنتمي إلى القرون الوسطى فهي لا تنظر إلى انسان اليوم في الوطن العربي باعتباره وجوداً حضارياً مستمراً وانما مجرّد كائن أثري يدل على حضارة قديمة .

* ويمكن الاضافة إلى ذلك أيضاً أن الصورة التي رسمت للعربي من خلال كتب الرحالة القديمة (التي هي في أغلبها انما كانت تمهيداً للغزو العسكري) وأقاصيص ألف ليلة وليلة ظلت تقدم حتى اليوم على أنها صورة العربي المعاصر ، كأن الزمن قد توقّف بالنسبة له وكأن ما أصاب الدنيا من تدرّج حضاري لم يمسسه من قريب أو بعيد .

* مضافاً إلى هذا وذاك عقدة النقص التي نذهب بها في مقابلاتنا مع الغرب، ان أغلب القصص القصيرة والمسرحيات والروايات العربية التي تناولت العلاقة بين العرب والغرب ابرزت فكرة الانبهار العربي ازاء ثقافة الغرب وحضارته ، انه دائماً الشرق العربي المتزمت ازاء الغرب المتحرّر أو الشرق العربي المسحوق ازاء الغرب المتفوق أو روحانية الشرق في مواجهة الغرب المادي أو الشرق المتديّن يتحدّى الغرب الكافر ، كلها منشأها عقدة النقص أو عقدة الاضطهاد التي يحس بها العربي حيال عنجهيّة الحضارة الغربية .

وبالاضافة إلى هذه العقد التي تحكم العلاقة فان ثمةعدداً من المحاذير يجدر بنا الاشارة اليها :

١ ـ الانتباه الى أن هذه الثقافة التي ننشىء معها الحوار الآن لها سلبياتها التي عادت بمردود سيء على تاريخ البشرية ،

فهي التي أنشأت الظاهرة الاستعمارية ، وهي التي أفرزت دعوات تخريبية مثل النازية والفاشية وأشعلت حرباً كونيّة ومكنت لحركة الصهيونية تحقيق جريمتها في اغتصاب فلسطين ، وهي التي أنتجت واستعملت سلاحاً يمكن أن يقضي على الجنس البشري في دقائق معدودة هو القنابل الذرية والنووية ، دون أن يجعلنا هذا ننتهي إلى معاداة الثقافة الأوروبية كلها انما مواصلة الكفاح ضد الهيمنة والانفتاح على التيارات الانسانية التي كانت تحارب داخل هذه الثقافة نفسها انتصاراً لقضايا الحق والعدل والحرية ، والتي حققت انجازاتها العلمية التي تخدم الانسان .

٢ ـ كذلك فانه لا يجب اعتبار الحضارة الغربية المثل والقدوة ، ان هذه الحضارة بكل نتاجاتها الثقافية لم تبق بمنجى عما يملأ عالم اليوم من أزمات ، انها بالرغم من الازدهار الذي تحقق لها تعيش مأزقاً تاريخياً ، فطبيعة المجتمع القائم على الاستهلاك الذي لا يكتفي بمجرد الانتفاع بالموارد الموجودة في عالمنا ، وانما يتبع سياسة غبيّة لاستنزافها ، قد انتج أزمة جديدة في عالم يزداد عدد سكانه دون أن يقابل ذلك زيادة في موارده ، أزمة لن تستطيع هذه الثقافة بالنمط المعيشي الرأسمالي أن تجد لها حلاً . كذلك فان تمجيد القيمة الفردية في هذه الثقافة قد أنشأ خللاً في العلاقات الاجتماعية التي تقوم على مبدأ التعاون بين الجماعات ، وهي لكي تحافظ على طبيعة هذا المجتمع الاستنزافي الاستهلاكي لا بد أن تسخر جزءاً كبيراً من مواردها لتصنيع قوى الحرب والدمار لكي تحتفظ بموقع القوة والسيطرة الذي يضمن لها استغلال موارد الشعوب الأخرى .

وننتقل من الحديث عن المحاذير الى الحديث عن عدد من النقاط التي يجب توفرها في الخطة الجديدة ، أهمها :

* عندما نخاطبهم فلا بد أن نخاطبهم بلغة العلم ، ففي هذا العصر الذي يبدأ بالعلم وينتهي اليه وفي مواجهة هذه الثقافة التي انتصرت بالعقل والعلم ، لا بد أن نهتدي إلى لغة تلتزم بالمنهجية وبالموضوعية وتتركز على الحقائق وتتوخى مخاطبة العقول بدلاً من الخطب الحماسية التي تعودنا أن نطبع بها نشرتنا الاعلامية التي نتوجه بها إلى الغرب ، والاعتماد في هذه المهمة على جهود العلماء والمفكرين بدلاً من اسنادها الى صغار الكتبة والموظفين .

* لا بد أن نرغم القارىء في تلك البلاد على اعادة قراءة تاريخ العلاقات الثقافية بيننا لاقتلاع ذلك التحيز ضدنا وضد ثقافتنا من ذهن المواطن البسيط الذي جاء نتيجة الموروث الثقافي الكولونيالي ، ولا بد من الوصول إلى تلك القوى الحية والقوى الشعبية داخل تلك البلدان فهي التي يمكن أن تكون شريكاً في هذا التواصل والحوار لقد ظلت هذه القوى معزولة عن أهم ما في تراثنا ، جاهلة بانجازات العقل العربي وفضله على الحضارة الحديثة ، ولم يكن ذلك صدفة ، وانما جاء نتيجة مخطط صهيوني امبريالي يسعى جاهداً لمنع هذا الاتصال لأن في تحقيقه تعطيلاً لدور القوى التي تصنع هذا المخطط وابطالاً لمهمتها وفضحاً لأساليبها وكشفاً للأكاذيب التي عاشت عليها ، ولا بد أن نستخدم في تحقيق هذا الحوار كل منجزات العصر في وسائل الاتصال بالجماهير واذا كان التفاعل الثقافي لثقافتنا مع ثقافات العالم القديم قد حققت أعظم النتائج وأسرعها بالرغم من بدائية الوسائل والأدوات فان الفرصة مع هذه المنجزات العصرية التي ألغت المسافات متاحة أكثر لكسر طوق العزلة وتحقيق النتائج التي نريدها لعملية الاخصاب الحضاري .

في كتابه « العرب من الامس إلى الغد » يشير استاذ الدراسات الشرقية جاك بيرك إلى العلاقة بين البلدان العربية والغرب الأوروبي فيمثلها بالعلاقة بين من تسميهم مسرحية فاوست « النبتونيون » و « الفولكانيون » أي أتباع نبتون إله البحر وأهل البراكين ، ابناء الماء وأبناء النار أولهما يعمل بصورة تراكم كما هو لدى الغرب وثانيهما بصورة تفجر كما هو الأمر لدى العرب إنها ـ كما يقول ـ صورة موحية أكثر مما هي ترتكز على حقيقة ، وهذا لا يمنع والكلام لجاك بيرك « ان الثورة ذاتها عندنا (أي في الغرب) اذا كانت ترتكز على حتميات صبورة فانها تتفجر عندهم (أي العرب) مثلما تتفجر النبوءة»[٣٥] . انه وهو يضع نظرية أبناء النار في مقابل نظرية أبناء الماء لا ينسى أن يؤكد ايمانه وبرغم هذا الاختلاف الجوهري في طبيعة الاثنين ، بامكانية الحوار ، نفعه وضرورته وهو يرى في ذلك برغم تغييرات العصر احد القسمات الثابتة لهذه الثقافة وهو يرى أن الانسان العربي ابن هذه الثقافة سوف يحمل للعالم الحديث المنقسم والمنهك ، والذي هو ضحية التحليل والمستمتع به ، رسالة الطراوة والنداوة بفضل سلوكه الى الشمول الكلي . إنها إحدى الشهادات الكثيرة التي تأتي الينا من مفكرين ـ من خارج هذه الثقافة ـ يعترفون بمدى امكانية ثقافتنا العربية على اضافة شيء جديد لمسيرة الانسان في عصرنا الحديث . ولهذا فاننا كمنتمين لهذه الثقافة انما نذهب الى أي حوار من واقع الاعتزاز بأنبل وأرقى القيم التي يحتويها تراثنا ، على ثقة من أن ثقافتنا التي استطاعت أن تخرج معفاة من حرب الابادة قادرة على

المواجهةوالتحدي وقادرة على التواصل والحوار ، ان شعارات الاخاء والمساواة بين الناس كانت موجودة في ثقافتنا قبل اثني عشر قرناً من مجيء الثورة الفرنسية فقبل أن تثور أوروبا على ملوكها الذين يحكمون بالحق الإلهي كان الاسلام يعتمد « وأمرهم شورى بينهم » شعاراً للحكم فقد كان الاحتفال بالعقل قيمة أساسية في الثقافة العربية عندما كانت أوروبا في عصر الظلام والانحطاط . ويرى مفكر من داخل الثقافة نفسها هو د . زكي نجيب محمود أن أهم الاضافات التي يمكن للثقافة تقديمها لثقافة الغرب تنظيمها لأخلاقية العقل لأن العقل في ديناميكيته لا العلم المجرد في ثباته وسكونه ، هو حجر الزاوية في البناء الانساني من وجهة النظر العربية[٣٦] .

وهو يرى أن الغرب اذا كان « ينقصه ما يكمله فنقصه في القيم التي تدمج الفرد في جماعته الانسانية دمج التعاطف والتعاون ، واذا كان العربي ينقصه ما يكمله فنقصه في قضايا العلوم التي هي الوسيلة للسيطرة (على الطبيعة) والامساك بزمامها »[٣٧] .

إن الثقافة العربية وهي تذهب إلى هذا اللقاء انما تذهب محملة برسالة ترى انها مؤهلة لكي تؤديها ولتأكيد مبادىء ثابتة هي أساس وجودها وهي عندما تنشىء هذا الحوار انما تعمل ذلك بهدي من قيم ثابتة في ميراثها الحضاري والانساني الذي كان محصلة لأفكار وثقافات أجناس عديدة انصهرت في اتون هذه الثقافة إبّان توهجها واشعاعها دون تعصب أو عنصرية ، بلا ضغائن أو أحقاد ، انما بروح العدل والمحبة والمساواة والعمل المشترك بين الناس، واعين ونحن ندخل هذا الحوار بشروطه الجديدة إلى ما نحتاجه من عناصر لاثراء واخصاب ثقافتنا ، فنحن لا نذهب مبهورين مستسلمين تابعين محملين بعقدة النقص أو الاضطهاد ، لأننا نذهب لنعطي بقدر ما نأخذ مدركين بوعي ومسؤولية ما نريده ونحتاجه ، اننا ونحن نذهب لتبادل الحوار ، في رحلة التفاعل الثقافي أخذاً وعطاء ، فانه مثل ما تكون لنا حصتنا في الكلام لا بد أيضاً وبحسب تعبير محمد مزالي من « اصغاء ذكي مرهف لروح العصر ، ووعي بمعطياته وتمثل متجدد له بمختلف التيارات والاتجاهات العلمية ، وقدرة على المزج والاقتباس والتفاعل والهضم »[٣٨] . إننا لا نذهب إلى هذا الحوار لكي نقف من الفكر العربي موقف « التقديس أو موقف الاستخفاف أو موقف الرفض أو موقف الانتقائية» وانما وبحسب تعبير محمود أمين العالم « لكي نتسلح منه بثمرات العلم الانساني مطبقين هذا التراث تطبيقاً نقدياً خلاقاً على واقعنا الخاص »[٣٩] . والا نكتفي أثناء ذلك بأن نستعير منجزاتهم المادية ونتعلمها وانما ضرورة النفاذ وراء هذه الأشكال الى الاسباب الحقيقية الدافعة لها أو ما يسميها د . قسطنطين زريق « القدرات العقلية التي انتجت وحققت هذه المنجزات المادية »[٤٠] .

ولا شك أن أحد شروط الحوار المتكافىء بين ثقافتنا وثقافة الغرب هي الالتفاف الى واقعنا من أجل تحقيق الاهداف التالية :

١ ـ القضاء على النعرات الاقليمية والانعزالية التي ظلت وستبقى سبباً من أسباب ركودنا الثقافي وتأكيد مبدأ وحدة الكفاح العربي على طريقة بناء دولة الوحدة مستقبلاً وتأكيد هويتنا العربية التي يجب أن تكون أساساً ومنطلقاً لتحركنا الثقافي .

٢ ـ العمل من اجل تحرر الاقطار العربية جميعها على طريق الوحدة العربية من كل انواع التبعية السياسية والاقتصادية وتأكيد استقلالها الوطني ، فلا تحرر ثقافي لمن ارتضى أن يكون تابعاً في مجالات السياسة والاقتصاد .

٣ ـ اطلاق كل قوى الابداع لتحريرها من كل ما يملأ حياتها من انواع القمع السياسي والاجتماعي والاحتفال بكل انجاز في مجالات الفكر والابداع وتأكيد قيمة الخلق والابتكار والتجديد .

٤ ـ مواجهة حملات التشكيك والتغريب بتعبئة الجماهير فكرياً وتسليحها بأنصع ما في التراث العربي من مكتسبات فكرية وحضارية والتوسع في نشر الثقافة الجماهيرية التي تخدم قضايا الناس وتسعى لتوسيع آفاقهم وفتح مداركهم وتقوية قدرتهم على الفهم والاستيعاب والتمييز .

٥ ـ استنفار كل عناصر القوة في الثقافة العربية من اجل تثويرها بحيث تكون في مستوى هذه المواجهة الحضارية وتحريرها من كل الآثار السلبية التي تركتها عصور الظلام والاستبداد والقهر وكل تلك الترسبات التي جاءت في مرحلة سقوط الدولة العربية الواحدة وبداية عصر التشرذم والتمزق وقمع الولاة الاتراك[٤١] .

٦ ـ اذا كان التيار الانعزالي السلفي الانغلاقي قد قاوم منذ ثلاثة عشر قرناً مضى تفتح الثقافة العربية على الثقافات الأخرى واعتبر في ذلك الوقت أن فضل التراث اليوناني والفارسي والهندي مدعاة للضلال فلا شك أن أصواتاً سوف ترتفع ضد ارساء أية قاعدة جديدة للحوار فلا بد من رفض

هذه الأصوات لأنها الغاء للتطور وحركة الزمن ذاتها .

٧ ـ واذا كانت الثقافة الغربية وفي عصور العنجهيّة والغطرسة الاستعمارية قامت على مبدأ إما هم وإما نحن . بمعنى أن ازدهارها لن يتحقق إلا اذا جعلت الثقافات الأخرى تابعة ذليلة لها هذا ان لم تعمل على طمسها ومحقها ، فان ثقافتنا يجب أن تتحرر من ردود الفعل ازاء تلك السياسة لأن هناك مساحة تسع كل الثقافات ، وان في تنوعها اثراء لمسيرة الانسان الحضارية وكما يقول « برتراند رسسل » « إن هذه الفوارق هي التي تجعل في مقدور كل أمة أن تضيف إلى تراث المدنية والحضارة » . فتقدمنا ليس بشرط لزوالهم كما أن تقدمهم ليس بشرط لتخلفنا[٤٢] .

هذه مجموعة ملاحظات علها تسهم في رسم استراتيجية لتحركنا الثقافي ازاء التحدي الذي تطرحه الثقافة الغربية ، استراتيجية ، تتحرر من عقد الخوف أو الانبهار،عقد النقص أو الاضطهاد ، لكي تبدأ ثقافتنا رحلة جديدة لكسر الحواجز وبناء جسور التفاهم والتعاون بالاعتماد على النشر والترجمة واقامة المؤتمرات العلمية والفكرية وتسخير بعض الموارد الاقتصادية لوضع قواعد ينطلق منها هذا التواصل وانشاء مؤسسات تقوم بنشر الفكر العربي وترجمته والاهتمام بنشر تراثنا المعاصر في المسرح والموسيقى والشعر والقصة باعتبار أن هذا الابداع وسيلة ناجعة في نشر الثقافة وخلق مناخ جديد للاشعاع والتفتح وكسر الاحتكار الصهيوني على الجوائز العالمية مثل جائزة « نوبل » بتأسيس جوائز عالمية يسهم العرب في تمويلها والتخطيط لها .

واذا كان أبناء الماء قد شقوا فوق الأرض نهر حضارتهم الذي اكتسح كالطوفان بلاد الدنيا ، فلقد حان الوقت لأبناء النار أن ينفضوا عن أنفسهم رماد السنين وان يوقدوا المشاعل التي انطفأت منذ خمسمائة عام ، لكي تغمر الدنيا أنوار حضارتهم الجديدة .

(١) احدى وثائق ندوة الغزو الثقافي الامبريالي الصهيوني تونس ٢٩ مارس ـ ٣ افريل .

(٢) ، (٣) الاستشهاد بهذين المفكرين المعاصرين من الغرب انما نسوقه تأكيداً على وجود بعض الرموز المضيئة في الثقافة الغربية ذاتها .

(٤) جورجي زيدان ـ تاريخ التمدن الاسلامي

(٥) ولعل أهم كتاب ترجمه ابن وحشية عن هذه اللغة هو كتاب « الفلاحة النبطية » الذي لا يزال مرجعاً خطيراً في علوم الزراعة وقد ترجم في وقت مبكر الى اللغات الأوروبية .

(٦) من جملة أسماء المترجمين عن الفارسية جبلة بن سالم ومحمد بن جهم البرملي ومحمد بن مطيار الاصفهاني .

(٧) ترجمت عام ٦٩٧ هـ وقد قام بالترجمة الفتح بن علي البندراي الاصبهاني .

(٨) ، (٩) جرجي زيدان ـ تاريخ التمدن الاسلامي ص ١٨٢ .

(١٠) ، (١١) أورد هذه الشهادات عباس العقّاد في كتابه أثر العرب في الحضارة الأوروبية ص ١١٦ .

(١٢) ، (١٣) د . علي حسن الخربوطلي « العرب ورسالتهم الانسانية » ص ٦٢ .

(١٤) دي لاس أوليري ـ الفكر العربي ومركزه في التاريخ ص ٢٣٨ .

(١٥) د . زيغرد هونكه ـ شمس العرب تسطع على الغرب ص ٤٥٠ .

(١٦) مجلة الثقافة العربية ص ٨٦ عدد سبتمبر ١٩٨٠ في تحقيق عن المخطوطات العربية في أوروبا .

(١٧) د . باول كونيتش ـ حركات الترجمة من والى العربية وأهميتها في التاريخ ـ مجلة آفاق عربية يناير ١٩٨٢ .

(١٨) كلمات روجر بيكون كما أوردها د . محمد الدسوقي في بحثه « الحضارة العربية وموقف أوروبا منها » الثقافة العربية يناير ١٩٧٥ ص ١٠ .

(١٩) عباس العقّاد ـ « اثر العرب في الحضارة الأوروبية » ص ٦٦ .

(٢٠) ، (٢١) عبده جبير ـ محاولة لتحليل جوانب الخيال في ألف ليلة وليلة قراءة جديدة ـ البيان ، نوفمبر ١٩٨٠ ص ١٣١ .

(٢٢) عبد الله الطيب ـ مجلة الدوحة ـ عددا فبراير ومارس ١٩٨٢ .

(٢٣) ان الملكة فيكتوريا نفسها التي تمت في عهدها حملات الغزو الاستعماري الانجليزي على الوطن العربي عندما أقامت نصباً تذكارياً لزوجها البرت زينته بصور عدد من هؤلاء المفكرين العرب جنباً إلى جنب مع مفكري الغرب اعترافاً بالمكانة التي حفظها لهم التاريخ .

(٢٤) احدى هذه المدارس التي انشئت حديثاً لنشر تعاليم محي الدين بن عربي وغيره من الصوفيين العرب هي مدرسة « البشارة » التي اتخذت لها مقرا احدى المزارع قريباً من مدينة ادنبره باسكتلندة .

(٢٥) مالك بن نبي ـ احاديث في البناء الجديد ١٣٥ .

(٢٦) ، (٢٧) عباس العقاد ـ أثر العرب في الحضارة الأوروبية ص ٧٠ .

(٢٨) د . باول كونيتش ـ حركات الترجمة مجلة آفاق عربية يناير ١٩٨٢ .

(٢٩) عباس العقاد ـ أثر العرب في الحضارة الأوروبية ص ١٦٦ .

(٣٠) أنور الجندي ـ الفكر العربي المعاصر ص ٨٢ .

(٣١) اعتمدت على كتابي الفكر العربي المعاصر لأنور الجندي واعلام الحرية لقدري قلعجي وكلاهما أورد هذه الحادثة .

(٣٢) طه حسين ـ مستقبل الثقافة في مصر ج ١ ص ٤٥ .

(٣٣) المصدر السابق ص ٥٠ .

(٣٤) مارسيل بوازار ـ انسانية الاسلام ترجمة د . عفيف دمشقية .

(٣٥) جاك بيرك ـ العرب من الأمس إلى الغد ـ ترجمة د . علي سعيد ص ٤١٤ .

(٣٦) ، (٣٧) تجديد الفكر العربي د . زكي نجيب محمود ص ٣٨٢ .

(٣٨) محمد مزالي ـ الاصالة والتفتح ـ مجلة الأدباء العرب ابريل ١٩٨٢ .

(٣٩) محمود أمين العالم ـ مناقشة موضوع الخصوصية والاصالة ـ مجلة الثقافة العربية يونيو ٧٤ ص ٣٢ .

(٤٠) د . قسطنطين زريق « في معركة الحضارة » ص ٢٤٠ .

(٤١) في محاضرة عن الابعاد التاريخية لأزمة التطور الحضاري العربي نقلت ملخصاً لها مجلة « الثقافة العربية في عدد يونيو ٧٤ صفحة ٢٩ يشير الدكتور شاكر مصطفى إلى أربعة عوامل سلبية هي :

أ ـ الغيبية : التي نقلت الفكر السببي من الأرض إلى السماء وعطلت قوانين الطبيعة بالكرامات والخوارق وتدخل قوى غير منظورة وبذلك قضى على الجانب العقلي والعلمي في الحضارة العربية .

ب ـ التلقينية : التي آمنت بدونية الأحياء وتفوق السلف نتيجة توقف الاجتهاد .

ج ـ السكونية : عندما أهمل الفكر عامل الزمن . وصار كل تغيير ابتعاداً عن العصر المثالي .

د ـ الارهاب الفكري الجماعي : وهو الصورة الأخرى المكملة للكبت الجنسي والضغط الاجتماعي والاستبداد السياسي .

وبرغم أن شوطاً كبيراً قد قطع في سبيل التحرر من ارزائها الا أن شيئاً منها ما زال يعمل في موروثنا الثقافي المعاصر .

(٤٢) نشير هنا إلى أن مؤتمر الحوار المسيحي ـ الاسلامي الذي عقد في ليبيا منذ سنوات مضت مثال طيب لمثل هذا الحوار الذي يجب أن يتواصل ويستمر .